

ابن خلدون ناقداً

أ.د. جهاد المجالي\*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٧/١٠/٢٩

تاريخ القبول: ٢٠٠٨/٨/١٠

ملخص

يهدف هذا البحث إلى إبراز شخصية ابن خلدون الناقد، فقد كان له موقف مميز من قضايا الشعر والأدب واهتمام بالتأليف فيه، ولعل فيما سوف نسوقه لابن خلدون من مواقف وآراء في قضايا الأدب والشعر، ما يؤكد امتلاكه للنصحية نقد الأدب، وسداد رأيه فيه، وأنه كما كان مبدعاً في علم الاجتماع، ومجدداً في علم التاريخ كان مجدداً أيضاً في كثير من آرائه ونقداته الأدبية.

وقد اشتمل اهتمام ابن خلدون على مواقف نقدية عديدة عكست مدى اهتمامه بقضايا الأدب وشؤونه، فمن هذه القضايا : قضية الفصل بين الشعر والدين، ومسألة عدم الإجابة في المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل، وموضوع اقتران حصول ملكة الشعر بكثرة الحفظ من جيد المحفوظ أو ما يُسمى في مصطلحنا بموضوع " الإطار الشعري"، وكذلك مفهوم الذوق عند أهل البيان.

Abstract

Ibn Khaldounas as Critic

This paper aims at pinpointing the personal features of Ibn Khaldoun, the critic, Ibn Khaldoun took a prominent stand regarding poetic and literary issues and showed interest in them. The opinions and positions that will be discussed and stated in this paper will show that Ibn Khaldoun was an authority in the field, and he was outstanding in sociology, an innovator in history, and in many of his critical literary views or perspectives. He took various stands regarding poetic and literary issues, such as, the separation of poetry and religion, is the difficulty outstanding or excelling in both prose and verse, the correlation between poetic faculty and excellent memory, which can stand for the modern term " poetic frame", and the notion of " taste" according to the people of rhetoric.

\* قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

## مقدمة

ابن خلدون عبقرية فذة لا يختلف في حقيقتها اثنان، ولعل التعمق في آثار هذا المفكر العربي المسلم، يحتاج إلى المزيد من الاستقراء والاستنتاج، إذ كان واسع العلم، غزير المعرفة، دقيقاً في التحليل والمقارنة، وتشهد مقمته بأنه مؤسس علم الاجتماع، فقد درس المظاهر الاجتماعية، أو ما كان يطلق عليه في وقته "أحوال الاجتماع الإنساني". وقد حاز على إعجاب العلماء في الشرق والغرب، وترك بصمات واضحة لا على حضارة وتاريخ الإسلام حسب، بل على الحضارة الإنسانية عامة، إذ قدم نظريات جديدة في علمي الاجتماع والتاريخ، خاصة في كتابيه: "الميزان" و"المقدمة"، وقد تأثر به عدد كبير من علماء الاجتماع مثل الألماني ليسنغ، والإيطالي فيكو، والفرنسيين (فولتير) و(أوجست كونت)

وفي مجال التاريخ فقد فلسف التاريخ لأنه أيقن بأن حقيقة التاريخ تتمثل في كونه خبراً عن الاجتماع الإنساني، بقدر ما تميزت به شخصيته من روح التجديد في علم التاريخ بقدر ما كان أيضاً مجدداً في الأدب، ناهضاً به، حيث إنه يعد ممن دعا إلى تحرر الأدب العربي من أغلال السجع والبيان اللفظي، وقد كان ينظم الشعر الجيد منذ أوائل صباه، وحتى سن متأخرة من حياته، ومن هنا فإنه ليس من المستغرب على عبقرية فذة كإبن خلدون أن يمتلك حاسة نقدية مرفهة، وبصراً فذاً في الأدب بعامة والشعر بخاصة، فإبن خلدون شخص موهوب، فإلى جانب كونه المؤرخ والفيلسوف والمفكر وعالم الاجتماع كان أيضاً الشاعر والناقد لأدب.

ولعل اهتمامه بنقد الأدب والشعر ينبع من كونه مفكراً بالدرجة الأولى، فالنقد الأدبي هو نوع من أنواع الفكر الإنساني، وهو ليس أول من اهتم من المفكرين والفلاسفة بالنقد الأدبي ممن ألفوا فيه، أو كان لهم في قضايا رأي، فقد سبقه الفراني وابن رشد والرازي وابن سينا وحازم القرطاجني وغيرهم إلى هذا الميدان، وفي التراث الإنساني كان أرسطو وأفلاطون وسقراط وهوراس وغيرهم ممن خلفوا تراثاً مهماً يشهد على اهتمامهم بالنقد الأدبي، ولعل كتابي أرسطو "فن الشعر" و"فن الخطابة" شاهد على ما أرساه أرسطو من فكر نقدي لا يزال حتى يومنا هذا مرجعاً للدارسين والمهتمين بالدراسات النقدية. وقد يعزى اهتمام الفلاسفة والمناطقة بالنقد الأدبي إلى حاجتهم الملحة لإدراك حدود بلاغة الكلام، كي يكونوا أصحاب حجة ومنطق، يمكنهم من إقناع جمهورهم الذي يوجهونه برأيهم وفكرهم، وبما أن بلاغة الكلام أو "البلاغة" هي فرع من فروع الدراسات النقدية، لأنها تعنى بالعبارة داخل النص، بينما يعنى النقد بالنص كله، فقد وجد كثير منهم في أنفسهم حماسة لبيان موقفهم من قضايا الشعر والأدب، واهتماماً للتأليف فيه، ولعل فيما سوف نسوقه الآن لابن خلدون من مواقف وآراء في قضايا الأدب والشعر، ما يؤكد امتلاكه لناصية نقد الأدب وسداد رأي فيه، وأنه كما كان مبدعاً في علم الاجتماع، ومجدداً في علم التاريخ كان مجدداً أيضاً في كثير من آرائه ونقاداته الأدبية.

وقد اشتمل اهتمام ابن خلدون على مواقف نقدية عديدة عكست مدى اهتمامه بقضايا الأدب وشؤونه، فمن هذه القضايا قضية الفصل بين الشعر والدين، ومسألة عدم الإجابة في المنظوم والمنثور معاً إلا للأكل، وصناعة الشعر ووجه تعلمه، وموضوع اللفظ والمعنى، وموضوع اقتران حصول ملكة الشعر بكثرة الحفظ من جيد المحفوظ أو ما يسمى في مصطلحنا بموضوع "الإطار الشعري"، وموضوع الطبع والصناعة، وترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر، وعدم اختصاص الشعر بالعرب دون غيرهم من الأمم، ومفهوم الدوق عند أهل البيان، وغير ذلك من قضايا لا مجال الآن لحصرها، وسوف نقصر في بحثنا هنا على أبرز هذه القضايا، مما يعكس بصر ابن خلدون النافذ في الأدب بعامة والشعر خاصة.

#### الفصل بين الشعر والدين:

لم يكن ابن خلدون هو أول من تحدث عن الشعر من حيث الموضوعات التي يسمو فيها الشعر، ويتسع فيها أفق الشاعر، فقد سبقه الأصمعي الذي كان أول من تنبه لذلك، حينما عرض للضعف الذي وسم به شعر حسان بن ثابت بعد إسلامه حيث قال: "الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان (بن ثابت) فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام مقط شعره"<sup>(١)</sup>.

وفي الموشح للمرزباني تفصيل وتوضيح لقول الأصمعي، حيث يقول: "لأن طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير - من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم - لأن شعره. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والناخبة، من صفات الديار والرحل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، وصفة الحمر والخيل والحروب والافتخار؛ فلما أدخلته في باب الخير لأن"<sup>(٢)</sup>.

وقول الأصمعي هذا يدل على أنه كان واعياً لطبيعة الشعر، مدركاً لخصوصيته التخيلية، ولعله تنبه إلى ما أحدثه الإسلام من تنير في الشعر بالمقارنة مع ما كان عليه حاله في الجاهلية بفعل أخلاقيات الإسلام التي تحتل على التزام الحق والخير، واجتناب الفحش والشر، وكان لزاماً على الشاعر في ظل الظروف الجديدة، أن يبتعد عن الغلو والإغراق في المبالغة، كي لا يتورط في ما نهى عنه الإسلام من محظورات، بفعل الإيغال في الخيال. وقد ذهب عدد من النقاد مذهب الأصمعي في موقفه من هذه العلاقة بين الدين والشعر مؤكدين على طبيعة الشعر التخيلية التي تستوجب قدراً من الغلو والمبالغة لا يمكن للشاعر دونهما التخليق في فضاء الشعر اللامتناهي، وتحقيق الممتعة الفنية التي يصبو إليها المثقفي، وهذا يتضح في موقف القاضي الجرجاني في عبارته الموجزة في لفظها، العميقة في دلالتها، حين قال: "والدين بمعزل عن الشعر"<sup>(٣)</sup> وقد احتمل وهو قاضي القضاة في جرجان آنذاك، بيت أبي الطيب:

يترشّفن من فمي رشفاتٍ      هنّ فيه أحلى من التّوحيد

بل أخذ العجب ممن ينتقد هذا البيت لما فيه من فساد العقيدة والديانة<sup>(٤)</sup>، ومما هو جدير بالذكر، أنه لولا الحرية الفكرية التي تقياً بظلالها المجتمع العربي الإسلامي، منذ أوائل القرن الثالث الهجري، لما كان من اليسير على النقاد والأدباء العرب الدعوة إلى ضرورة الفصل بين الشعر والدين، وهو ما لم يتح للمفكرين والنقاد في أوروبا التصريح به [لا قبل ما يقرب من خمسمائة عام فقط، كما أورد ذلك هيرت ريد "Herbert Read" في كتابه "معنى الفن" "The meaning of art" بسبب سطوة الكنيسة وما كانت تضعه من قيود في وجه حرية الفكر

(١) ابن قتيبة، عبد الله محمد بن مسلم (ت ٢٧٦/٨٨٩م)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث العربي، القاهرة، ١٩٧٧م، ج ١، ص ٣١١.

(٢) المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤/١٠٠٨م)، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: علي النجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص ٨٥، ٩٠.

(٣) القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز (ت ٣٩٢/١٠٠١م)، الوساطة بين المقتدي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار القلم، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٦٤.

(٤) المصدر السابق.

أذلك، فيما استطاع النقاد العرب أن يجهرُوا بمثل هذه الدعوة، قبل ما يزيد على ألف ومائتي عام<sup>(١)</sup> ولا شك في أن مثل هذا الفهم الناضج لطبيعة الشعر، التي توجب مثل هذا الفصل، يتضح في مواقف الكثيرين من الأبناء والنقاد العرب، الذين لا يتسع المقام هنا لاستقصاء آرائهم<sup>(٢)</sup> لأننا هنا معنيون بالمقام الأول بموقف ابن خلدون من هذه القضية، ولكن كان لا بد من هذا التقديم حتى نقف على موقف ابن خلدون، ونتبين مدى ما قدمه من إسهام وتوير، في إضاءة حدود العلاقة وطبيعتها بين الدين والشعر.

يقول ابن خلدون: "ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجابة في الغالب، ولا يحق فيه إلا الفحول، وفي القليل على العسر، لأن معانيها متداولة بين الجمهور، فتصير مبتذلة لذلك"<sup>(٣)</sup> وهذا القول يعكس إدراك ابن خلدون الحائق لطبيعة الشعر، فالشعر الذي يقال في باب المعاني الروحية كلها، سواء أكانت في تسييح المولى، وذكره، وتحميده، أو في المدائح النبوية، أو لنقل الشعر الذي يستقي معانيه من الدين ووجي المعقيدة بعمامة، فإنه يدور كله في فلك المعاني المباشرة أو المتداولة بين الناس، التي هي بحكم المعاني المألوفة لحضورها في ذهن العامة والخاصة من الناس؛ لأنها تبقى الشاعر أسير واقعية الموضوع الذي يشغله، وجدبته، دون أن يقوى على التخيل، أو التحليق في فضاء الشعر اللامتناهي؛ لأن مثل هذه الموضوعات لا تحتمل على الأغلب أي قدر من التخيل، الذي هو أس الشعر، وروحه التي دونها يتحول الشعر إلى كلام منظوم، أو كلام موزون مقفى، على حسب رأي بعض قدماء النقاد العرب، فيفقد تأثيره في جمهوره، ولا يحدث هزة في نفوس سامعيه، كما يحدثها الشعر ذو الخيال المجنح. وابن خلدون يقرر هذا الأمر دون أن يقطع في الحكم، أي أنه لم ينظر إلى النفوق والإبداع في مثل هذه الموضوعات من باب المستحيل غير الممكن، وإنما نظر إلى الموضوع من زاوية المستحيل الممكن، إذا جاز التعبير، وبدل على ذلك استخدامه لفظة "قليل" التي تفتح الباب، ولكن من زاوية ضيقة، لا تسمح بالمرور من خلالها إلا لنفر محدود، أي إنه آمن بأن الفرصة سانحة أمام الفحول، أو أصحاب المواهب المتميزة في الشعر كي يجيدوا ويبدعوا في هذه الموضوعات، وهو حتى في هذا الاستثناء، حرص على أن يؤكد بأن هذه الفرصة ليست ساحة في كل وقت وحين، حتى على أولئك الفحول من الشعراء، لأنها إن سنحت أمام بعضهم، فإن ذلك لا يتاح بكثرة ويسر، وإنما على حسب تعبير ابن خلدون نفسه، في القليل وعلى العسر. وهذا التفكير المتقدم يدل على أن ابن خلدون كان ناقداً ناضجاً، ويمتلك الحاسة الفنية اللازمة، التي يقيم من خلالها الظواهر الفنية، التي تلوح في الأفق الفني الرحب. وابن خلدون في هذا الرأي لم يكن مقلداً لمن سبقه، كما قد يتخيل بعضهم، بل كان مجدداً في هذه الفكرة متوسعا في دلالتها، فالأصمعي، بلا منازع كما أثرنّا، هو أول من تنبه لهذه الفكرة، غير أنه أطلقها في دائرة الخير بعمامة، بينما وجدنا ابن خلدون لا يفتح بهذا الإطلاق، وإنما قصد إلى تخصيص الحديث حول الموضوعات الروحية، أو ما سماه بالربانيات والنبويات، وهي إضافة لا تتكرر في هذا السياق، وأقصى وأدق ما يمكن الحديث عنه من موضوعات

(١) انظر: Herbert Read: The meaning of Art, London; 1982.

(٢) انظر على سبيل المثال: الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت ٨٢١٦/٢٩٩م)، فحولة الشعراء، تحقيق: ش. توري، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م، ١٦٩؛ الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١/١٠٧٨)، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، ط١، دار المدني، جدة، ١٩٩١م، ص ١٧١؛ الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٥٢٣٥/٩٩٠م)، أخبار أبي تمام، تحقيق: خليل عسكر وآخرين، ص ١٧٢-١٧٤.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨/١٤٠٥م): تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٧٢، ١١٠٧ وما بعدها.

ضمن دائرة الخير، فبينما انحصر حديث الأصمعي حول موضوع الرثاء، وبالتحديد مراثي الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان حديثه عن هذا الموضوع على سبيل التمثيل لا الحصر، ولا شك في أن تجاوز ابن خلدون عن الحديث في الموضوعات التي تقع ضمن دائرة الشر تجاوز مبرر لأن الحكم على الشعر من خلال موضوعات الخير يعكس بالضرورة نقيض هذا الحكم، من خلال موضوعات الشر، وهو أمر يبركه ابن خلدون جيداً ويتفق فيه ضمناً مع الأصمعي، وهو، من جانب آخر، لا يريد أن يكرر ما ذكره الأصمعي، حين عرض الموضوعات التي تقع في دائرة موضوعات الشر على حسب المفهوم السائد آنذاك، مثل موضوعات الهجاء، والغزل، والفخر، والحروب، وغير ذلك، مما يحفز مخيلة الشعراء على الإبداع<sup>(١)</sup>.

والإضافة الأخرى التي لا تخفى هنا أن ابن خلدون لم يقيد حكمه بالإطلاق على الشعر في موضوعات الخير، كما فعل الأصمعي، وإنما ترك المجال مفتوحاً لبعض الاستثناء، أمام بعض فحول الشعراء، وإن كان تحقيق مثل هذا الاستثناء، حتى على هؤلاء الفحول، نادراً وعسيراً.

أما حديثه عن أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة والذوق من كلام أهل الجاهلية في منثورهم، ومنظومهم، فلا يوحي على الإطلاق بأي تناقص قد يفهم مع ما سبق، حينما قرر أن مجال الإبداع الفني في الشعر، يكمن في موضوعات الشر التي أشرنا إليها آنفاً. يقول: "وإن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأدواقيها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم فأما نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار... أرفع طبقة من البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهليين في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة"<sup>(٢)</sup>.

وواضح أن عدم التفاضل الذي أشرنا إليه، يكمن في أن الموقف الأول لابن خلدون، موقف فلسفي في المقام الأول، يتعلق بمجال الشعر، أي في الموضوعات التي تشدق قريحة الشاعر وتثير خياله، وتحفز على الإبداع، وهو موقف يتلاقى بطبيعة هذه الموضوعات، وتباينها في الطاقة، من حيث القدرة على إثارة مخيلة الشاعر، كما أسلفنا، والمعنى الفلسفي هنا يوضح في الفرق بين موضوعات ذات طبيعة غنية بمعانيها، قادرة على تأجيج خيال الشاعر، وأخرى ذات طبيعة محدودة المعاني، لا يتبدل معانيها بين الجمهور، وقصور طاقتها في إثارة مخيلة الشاعر.

ويمضي ابن خلدون في تفسير هذا التباين في مستوى الذوق، وطبقة الكلام بين أهل الجاهلية والإسلام بقوله: "والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها"<sup>(٣)</sup>.

أما الموقف الثاني فهو موقف ينصب على أثر القرآن، أو ما أحدثته بلاغة القرآن وفصاحته من أثر في تهذيب الذوق، ونهضة الطباع، وتهذيب الملكة.

(١) انظر: المرزباني، الموشح، ص ٨٥، ٩٠.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، المقدمة، تحقيق: عبد الواحد وافي، ط ٣، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ج ٣، ص ١٣١٥-١٣١٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣١٦.

ومن هنا فإننا نفهم على سبيل المثال أن حقيقة ضعف شعر حسان بن ثابت بعد إسلامه، التي تحدثنا عنها بعض المصادر<sup>(١)</sup>، لانهيار موضوعات شعره في مجالات الخير، لا تتناقض ألبتة مع ما أورده ابن خلدون من أن طبقة كلامه في منظومه بعد إسلامه، أرفع من حيث الفصاحة والبلاغة مما كانت عليه طبقة كلامه، وكلام غيره، من شعراء الجاهلية قبل الإسلام، وكذلك الحال مع شعراء العصر الأموي، الذين عدهم ابن خلدون أعلى مقاماً في طبقة كلام منظومهم، من طبقة كلام بعض أصحاب القمامات الرفيعة من شعراء العصر الجاهلي ممن عدهم.

ومما يؤكد أيضاً انقضاء التناقض فيما ذهب إليه ابن خلدون في المناسبتين، أنه حينما تحدث عن تميز طبقة كلام أهل الإسلام عنه عند أهل الجاهلية، أنه لم يقصر حديثه على الشعر حسب، وإنما قصد إلى الحديث عن المنظوم والمنثور على السواء، مما يعني أن الفكرة هنا لا تمس طبيعة الشعر، من حيث موضوعاته التي تحدثنا عنها سلفاً، وإنما تمس الكلام بعامة، شعره ونثره، من حيث مستواه في الذوق وطبقته في البلاغة.

الجمع بين الإبداع في المنظوم والمنثور معاً:

إن من المتفق عليه أنه يتوقع من الفنان أو أي كان من أصحاب المواهب أن يبرع في أكثر من نوع واحد من أنواع الفنون إلا في النادر، وإذا ما حاول ولوج مجال آخر من مجالات الفن فلن يكون موقعه بمستوى موقعه في الفن الذي أقحم نفسه فيه، أو قد يظهر ضعفاً هو مستغن عن إظهاره. وهذا يتضح في قول ابن المعتز في أبي علي البصير: "وكان أبو علي كاتباً رسالياً. ليس له في زمانه ثناء، شاعراً جيد الشعر، وقد قلنا في أخبار العتابي: إن هذا قلما يتنق للرجل الواحد، لأن الشعر الذي للكتاب ضعيف جداً، وكتابة الشعراء ضعيفة جداً، فإذا اجتمعا في الواحد فهو المنقطع القرنين"<sup>(٢)</sup> ويقول سهل بن هارون: "اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد؛ وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم"<sup>(٣)</sup>. فالأمر عسير كما يقول سهل ولكنه غير مستحيل، إذ لا نعدم أن نجد من شهد لهم الأديباء والنقاد بالقدرة على التنفوق في كلا المجالين، كالعتابي الذي يقول فيه جعفي المالكي: "وما رأيت كاتباً تقلد الشعر مع الكتابة إلا وجدته ضعيف الشعر غيره، فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام"<sup>(٤)</sup>. ويتفق ورقاء العجلي مع المالكي في القاعدة والاستثناء. يقول: "كان العتابي مجيداً مقتدراً على الشعر عذب الكلام، وكاتباً جيد الرسائل حاذقاً، وقلما يجتمع هذا لأحد"<sup>(٥)</sup>.

ويضيف ابن خلدون مثلاً آخر في صدد بيان موقفه من هذه الظاهرة قائلاً: "ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها، ورسخت في نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة التجارة أو البناء، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صيغتها. والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا يبين يشهد له الوجود. قل أن تجد

(١) انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٣١١؛ المرزباني، الموشح، ص ٨٥، ٩٠.

(٢) ابن المعتز، عبد الله بن المتوكل (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م)، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار فراج، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص ٣٩٧.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م): البيان والنبين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٤، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٢٤٣.

(٤) طبقات ابن المعتز، ص ٢٦٢.

(٥) المصدر السابق.

صاحب صناعة يحكمها، ثم يحكم من بعدها أخرى، ويكون فيهما معاً على رتبة واحدة من الإجابة. حتى إن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية، قلَّ أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته، بل يكون مقصراً فيه إن طلبه، إلا في الأقل النادر من الأحوال. ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتكوينه بلون الملكة الحاصلة في النفس<sup>(١)</sup>.

وهنا نتجلى عبقرية ابن خلدون في تفسير هذه الظاهرة، فقد أدرك أن للطاقة الأدبية في النفس الإنسانية مسالك تسير فيها أو في بعضها على حسب طاقة الأديب وميوله وفطرته، فقد تأخذ هذه الطاقة صورة الإنتاج في بعضهم كما هو الحال مع الشعراء والكتاب والخطباء، ويكون مستواهم في ذلك على درجات متباينة استناداً إلى ما وهبوا من تلك القوة أو الطاقة، وقد تأخذ هذه الطاقة شكل الإدراك والتذوق؛ فتخص بما في الآثار الأدبية من جمال وإبداع، ويكون مستوى هؤلاء أيضاً متفاوتاً على حسب ما وهبوا من قدرة وطاقة في هذا الاتجاه. يقول: "والسبب في ذلك أنه كما يبنّا ملكة في اللسان؛ فإذا سبقت إلى محله ملكة أخرى، قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة، لأن قبول الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر، فإذا نغمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المدة القابلة وعائقة عن سرعة القبول، فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكة... فاعتبر مثله في اللغات فإنها ملكات اللسان، وهي بمنزلة الصناعة. وانظر من تقدم له شيء من العجصة، كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً، فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي، وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر... وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم. وإن من سبقت له إجابة في صناعة قلَّ أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية"<sup>(٢)</sup>.

فقد سبق سهل بن هارون وغيره، كما أسلفنا، ابن خلدون في الإشارة إلى هذه الحقيقة ولكنهم لم يقفوا عند هذه الظاهرة مفسرين ومحللين كما فعل ابن خلدون.

وهذا الأمر يبدو واضحاً جلياً فيما لاحظته النقاد العرب على شعر "الشعراء العلماء" كما كانوا يسمون، ويقصد بهم من كان ينظم الشعر من النقاد والكتاب والأدباء وعلماء اللغة والنحو والبلاغة والعروض وغيرهم. وإدراك ابن خلدون لحقيقة صعوبة الجمع بين المنظوم والمنثور والتميز في كلا المجالين معاً نابع من كون الشعر عالماً خاصاً يقوم على الخيال والماطفة، أما المنثور فيقوم على العقل بالدرجة الأولى، والتعارض بين الأمرين واضحٌ بين، وهكذا فإن العلماء كما كانوا يُذعنون، أقرب إلى أن يكون شعرهم شعر صناعة، أو نظماً يخاطب العقل في المقام الأول، ويحكمه التكلف والتعمل. يقول ابن قتيبة معلقاً على شعر للخليل بن أحمد العروضي: "وهذا الشعر بين التكلف رديء الصناعة. وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن أسماح وسهولة، كشعر الأصمعي، وشعر ابن المقفع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً"<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن خلدون، تاريخ، ص ١١٠٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج ٣، ص ١٢٩٨-١٢٩٩.

(٣) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٥٧٦/٨٨٩م): الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد شاكر، ط ٣، دار التراث العربي، ١٩٧٧م، ج ١، ص ٧٦.

وواضح من كلام ابن قتيبة أن المجال يسمح أحياناً بالاستثناء كما هو الحال مع خلف الأحمر الذي أكد تميز شعره عن شعر غيره من العلماء في أكثر من كتاب. يقول فيه: "كان رواية عالماً بالغريب، وشاعراً جيد الشعر كثيره، لم يكن في نظرائه أحد يقول مثل شعره"<sup>(١)</sup>.

ونحن وإن أشرنا إلى الاستثناء الذي يمثل خلف الأحمر، أو غيره في أحيان أخرى فإن ما يهمنا هو القاعدة العامة أو الفرضية التي تصدق على الأغلبية.

وهكذا فقد استطاع ابن خلدون أن يتفوق في تفسير هذه الظاهرة وتحليلها، وتحديد موقفه منها بأسلوب عقلي ومنطقي مقنع، وأبدع في طرح مفهومه لدور الملكات وحصولها للطبائع في النفس الإنسانية، وأنها صفات للنفس والألوان لا تردحم دفعة، وهو ما لم يقف عنده القدماء ولا معاصروه مفسرين كما فعل ابن خلدون بعقلية الفيلسوف المبدع، التي تأبى التسليم بظواهر الأشياء دون تحليل علمي مقنع، مما يؤكد أن ابن خلدون كان مُجَلِّباً في تحليل هذه الظاهرة<sup>(٢)</sup>.

#### الذاكرة والإطار الشعري:

أكد النقاد العرب القدماء على أهمية الدور المنوط بالذاكرة أو الحافظة في عملية الإبداع الفني، وركزوا على ضرورة إغناء الشاعر ذاكرته من خلال الحفظ والرواية؛ ذلك لأن الشاعر حينما يقرأ أشعار أسلافه ومعاصريه ويحفظها فإنه يختزن في ذاكرته مادة ضخمة ترفد موهبته وتمكنه من أن ينظم في أي موضوع من موضوعات الشعر، وأن يولد المعنى الذي يريد، وتلمب الذاكرة استناداً إلى هذا المعنى دوراً لافتاً ومميزاً، خاصة إذا كانت من النوع للحاد والشفاف فإنها حينئذ تعد دلالة من دلالات الفحولة والتفوق. ومن هنا فقد قرن النقاد العرب منذ وقت مبكر صفة الفحولة في الشعر بالقدرة على حفظ الأشعار وروايتها<sup>(٣)</sup>، ولا تكتمل صورة الفحولة عند الشاعر بالحفظ والرواية فقط وإنما يجب أن يكون صاحب خيال جامع خصب يمكنه من استثمار مخزون ذاكرته من صور وأفكار وتشكيلها تشكيلاً فنياً جديداً فيه من الجدة والابتكار ما يجعلها مقترنة به لا بغيره، فالحفظ هو إثبات صور المعقولات والمحموسات في النفس<sup>(٤)</sup>، والتذكر هو استحضار الصور من الذاكرة إلى مجال القوة للمخيلة حيث يتم تشكيلها وصياغتها من جديد<sup>(٥)</sup>. ويمكن تفسير مصطلح الرواية في مفهومنا الحديث بما ندعوه "الإطار الثقافي"، وهو ضروري للشاعر والأديب من وجهة النظر الفنية البحتة؛ وذلك لأن الشاعر مطلوب بكل علم لاتساع مجال الشعر وتعدد روافده من نحو ولغة وفقه وغير ذلك؛ لما لذلك من أثر بالغ في أغناء ذاكرة الشاعر وإشباع مخزونها في

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٨٢٧/٨٨٩م)، للمعارف، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٣٠٢، ٥٤٤ وانظر: ابن المنذر، طبقات الشعراء، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) انظر: عثمان عبد الخالق، مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين، ط ١، عمان، ١٩٩٤م، ص ١٨٠-١٨٨ وانظر أيضاً: بسام عمار، ابن خلدون أدبياً وناقداً، مجلة التراث العربي (اتحاد الكتاب العرب)، دمشق، عدد (٦٠)، ١٩٩٥م، ص ٩٣-٩٤.

(٣) انظر: الجاحظ، البيان والبيان، ج ١، ص ٩٠؛ ابن رشيق، العمدة، ج ١، ص ٣٦٢؛ وانظر: جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٩٣.

(٤) التوحيدي، علي بن محمد أبو حيان (ت ٨٤١/١٠٢٣م) المقابسات، تحقيق وتقديم: محمد توفيق حسين، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٣٦٣.

(٥) التوحيدي ومسكويه، علي بن محمد أبو حيان (ت ٨٤١/١٠٢٣م)، ومسكويه، أحمد بن محمد (ت ٨٤٢/١٠٣٠م): الهوامل والنوامل، نشر: أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م، ص ٣٥٢.



مختلف فروع العلم والمعرفة ليكون متمكناً في شعره ومقنماً لجمهوره. وقد حرص هؤلاء النقاد على توجيه الشاعر إلى الإكثار من حفظ الشعر والاطلاع على أساليب الشعراء ومعرفة جيدهم من رديهم دون تمييز بين قديم أو حديث، وبدون أن ينفذ ذلك على استقلالية شخصيتهم الشعرية كي لا يتحولوا إلى تابعين أو مقلدين<sup>(١)</sup>. يقول ابن رشيق: "ولياخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسب؛ وأيام العرب؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، ويلحق بنفسه بعد أنفاسهم، ويقوى طبعه بقوة طباعهم..."<sup>(٢)</sup>.

إن إلحاح النقاد العرب ومطالبتهم للشاعر بحفظ أشعار السابقين أمر حيوي وهام ولا يعني بالضرورة أن يكون الشاعر ظلاً أو تابعاً لمن يقرأ أشعارهم ويحفظها في ذاكرته؛ لأن قراءات الشاعر المختلفة ومحفوظه من الشعر مضافاً إليه تأملاته الخاصة يشكل مجملها الثقافة الضرورية للشاعر أو ما يسمى بالإطار الشعري في المصطلح الحديث، وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى عد هذا الإطار أساساً لا غنى عنه لعملية الإبداع الفني. يقول يوسف مراد: "إن لم يكن الشاعر أو الأديب أو الفنان ذا ثقافة واسعة أجهده عقله في اكتسابها، لما أتيح له أن يصوغ الآيات الفنية الخالدة التي تطوي الدهور طياً بدون أن تفقد روعتها، بل تزداد جمالاً كلما اتسعت آفاق الإنسان الثقافية وأصبح أوسع فهماً وأنفذ بصراً"<sup>(٣)</sup>.

وأنه من اليسير على الناقد أو الخبير في الشعر أن يحدد مصادر محفوظ الشاعر، خاصة إذا ما أكثر الشاعر من الحفظ لشاعر بعينه أعجاباً به وانبهاراً بشعره. يقول العميدي في شعر أبي المستهل الكمي: "وتلح في شعر الكمي آثار الحفظ الكثير لأشعار سابقيه مع السبك الحسن"<sup>(٤)</sup>.

وقد تمكن أحد الباحثين من اقتفاء أثر قصيدة كوليردج (Coleridge)، كبلاخان (Kubla Khan) التي ألهمها أثناء نومه كما قال إلى خمس وعشرين سنة قبل كتابتها من خلال استنصاء قراءات الشاعر ومشاهداته<sup>(٥)</sup>.

ويقول بن جونسون (Ben Jonson): إن أول الضروريات التي تتطلب من الشاعر أن يفيد من كتابات غيره<sup>(٦)</sup>، ويقول ت.س. إليوت (T.S. Eliot): "إن عقل الشاعر يجب أن يكون كالمغناطيس الذي يجتذب من قراءاته الصور والعبارات والأفكار"<sup>(٧)</sup>.

وقد دعا العرب أنفسهم إلى ضرورة مثل هذا الإطار وحيويته، يقول أبو هلال العسكري: "ولولا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته أن يقول؛ إنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين"<sup>(٨)</sup>. وذهب الفاضلي الجرجاني

(١) انظر ابن طباطبا، محمد بن أحمد الملوي (ت ٣٢٢/٩٣٣م)، عيار الشعر، تحقيق محمد زغول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت)، ص ٤٢-٤٣.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ج ١، ص ٣٦٢.

(٣) انظر: يوسف مراد، مبادئ علم النفس للعلماء، ط ٣، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٤) العميدي، أبو سعيد محمد بن أحمد (ت ٤٣٣/١٠٤١م): الإبانة عن سرقات المتنبي، تحقيق: إبراهيم الدسوقي، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص ٢١٤.

(٥) انظر:

Downey, June, E.: Creative Imagination, Kegan Paul Trench Trubner & Co, Ltd., London 1925 p.164.

(٦) انظر: Phocix, Allen, walter: Writers on Writing, House, London 1948, p. 81.

Ibid (٧)

(٨) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥/١٠٠٤م)، الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، صيدا- بيروت، ١٩٨٦، ص ١٩٦.

إلى جعل الرواية أحد الأسس الأربعة التي يقوم عليها الإبداع الفني<sup>(١)</sup>. وقد تنبه ابن طباطبا إلى فكرة الإطار الشعري حين طالب الشاعر المبتدئ أن يديم النظر في الأشعار القديمة للتصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه، وتصير مواد لطبعه؛ ويذوب لسانه بألفاظها. فإذا جاش فكره بالشعر، أدى إليه نتائج ما استفاد مما نظر فيه من تلك الأشياء<sup>(٢)</sup>.

وقد ركز ابن خلدون على فكرة الإطار الشعري حينما ذهب إلى أن ملكة الشعر تنشأ بحفظ الشعر، وعلى الرغم مما قد يستشف من رأيه، ومن مجمل آرائه في هذا الموضوع من تجاهل لدور الموهبة، وعد الملكة الشعرية اكتساباً خاصاً، فإنه انتهى إلى آراء قد تكون فريدة حينما جعل لنوع محفوظ الشاعر دوراً أساسياً في تشكيل الملكة، وأنه بارتقاء المحفوظ في طبقة من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة، فمن حفظ شعر أبي تمام أو ابن المعتز أو الشريف الرضي ورسائل ابن المقفع وسهل بن هارون، كانت ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل الإسرائيلي أو ابن النبية أو ترسل البيهقي والعماد الأصبهاني، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك، وهو ما يشهد به النوق ويدركه الناقد البصير، ويقرر ابن خلدون أن نوع المحفوظ هو الذي يحدد اتجاه صاحبه، ومستوى شعره وأن السابق من المحفوظ هو الذي يشكل الملكة ويلونها. يقول ابن خلدون: "وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقة من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من الخارج. فبهذه يتم وجودها، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها. والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدرج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلمية. بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأظفار"<sup>(٣)</sup>.

ولهذا كان الفقهاء والنحاة والمتكلمون وأهل العلوم قاصرين في البلاغة وكان شعرهم أدنى في مستواه الفني بسبب ما يسبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والمباريات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة التي سبقت إلى فكرهم ولونت نفوسهم، وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم، يقول ابن خلدون: "ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة. وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنزلة عن الطبقة، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة. فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غابة التصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب"<sup>(٤)</sup>.

وهو يورد قصة مفادها أن أبا العباس بن شعيب، كاتب السلطان أبي الحسن، أشد مطلع قصيدة ابن النحوي دون أن تتنب له:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها واليالي

(١) القاضي الجرجاني، الواسطة، ص ١٥.

(٢) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ٤٨.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج ٣، ص ١٣١٣-١٣١٥.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣١٤.

فقال علي البديهة: هذا شعر فقيه. وعندما طلب منه تعليل ذلك، أجاب: من قوله "ما الفرق" كونها من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب<sup>(١)</sup>.

وقد بنى ابن خلدون رأيه هذا استناداً إلى تجربته الذاتية أيضاً، فقد كان قادراً على قول الشعر بسبب محفوظه الشعري الأصيل، ولكنه لاحظ استصعاباً فيه كلما حاول النظم، وعزا ذلك إلى التنازع بين محفوظه الأصيل من الفن الشعري وما سبق إلى حفظه من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية ومدارسته لكتب الأصول والفقه والمنطق<sup>(٢)</sup>.

يقول ابن خلدون: "أكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير السلوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة، فقلت له أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى دمت مع بصري به وحفظي لجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلاً، وإنما أنت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية. فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس، فامتلاً محفوظي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي استعدت لها بالمشفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة معجباً ثم قال: لله أنت! وهل يقول هذا إلا مثلك؟؟"<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا كان ابن خلدون يرى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة من كلام أهل الجاهلية في منثورهم ومنظومهم ويجد أن شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق وغيرهم من أهل الإسلام أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وزهير وطرفة من أهل الجاهلية، وكذلك الحال في منثورهم من خطب وترسيل ومحاورات، وهو يعزو ذلك إلى أن من أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلتهما. كونها ولجت قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فكان كلامهم في منظومهم ومنثورهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك. وقد راق هذا التعليل لبعض أشباهه، ومنهم أبو القاسم، قاضي غرناطة، الذي قال فيه إن من حقه أن يكتب بالذهب.

وبعد، فإن هذا التركيز من ابن خلدون على أهمية الإطار الشعري وحفظ أشعار السابقين يوضح لنا أن الشاعر بأمس الحاجة إلى قراءة الآخرين، والاستفادة من تجارب غيره، ولا يمكن لشاعر أن يستغني عن هذه القراءات، وأن الإبداع الفني ليس تنسيقاً لما هو موجود في ذاكرة الشاعر من مواد بطريقة جديدة<sup>(٤)</sup>، وإنما يكمن في نفث الروح في هذه المواد المحفوظة في ذاكرة الشاعر وإضفاء الطابع الخاص عليها من خلال الخيال الخلاق الذي يبدع ويبكر، فالإطار الشعري يفترض أن يكون الموجه لعملية الإبداع عند الشاعر، أي إنه الوسيلة وليس الغاية.

#### مفهوم الذوق الفني:

إن مصطلح الذوق (Taste) من ألق المصطلحات بالنقد وعمل النقاد لاتصاله الوثيق بما يصدر عنهم من أحكام، ولأن الذوق في رأي الانتطابعيين أو التأثيريين صاحب القول الفصل في تقدير الأدب في أي زمان أو مكان،

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣١٤-١٣١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣١٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٨٥-٢٨٧.

وفي اللسان ذاق الشيء يذوقه ذوقاً ومذاقاً، بمعنى خبر طعمه<sup>(١)</sup>. وهذا يعني أن التذوق يعتمد على الفاعلية العضوية في الجسم المدرك عندما تذاب الأشياء المذاقة وتتفاعل بالمواد الموجودة في الحلمات التي تغلف غشاء اللسان. وخير ما يوضح هذا الأمر قول ابن سينا في الذوق: "قوة مرتبة في العصب المفروش على جرم اللسان يدرك الطعوم المتحللة من الأجرام المماثلة له المخالطة للرطوبة اللعابية التي فيه فتستحيل إليه"<sup>(٢)</sup>. ويعرفه ابن خلدون بأنه حصول ملكة البلاغة لسان بقوله: "واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان، وإنما هو موضع لإدراك الطعوم، ولكن لما كان محل لذة الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير له اسمه: وأيضاً فهو وجداني اللسان، كما أن الطعوم محسوسة له: ف قيل له ذوق"<sup>(٣)</sup>.

وهكذا فإن معناها الحسي الأول يعني اختبار الأشياء باللسان لتحديد طعمها، ثم انتقلت الكلمة كما بين ابن خلدون بعد ذلك إلى اختبار الأشياء بالنفس لتحديد خصائصها الجسدية أو القبيحة كجمال الألوان وتناسقها، ورواق الأنفاظ وبلاغتها، وحسن الأنعام وانسجامها وعكس ذلك، أي إنه أصبح مفهوم الذوق يتناول كل نشاط إدراكي يصل الإنسان مباشرة بالشيء المدرك سواء كان إدراكاً لمسيّاً أم مرئياً أم سمعياً. ومن هنا دخلت هذه الكلمة دائرة الفنون الجميلة لتدل على هذه الملكة التي تصل إلى ما في الآثار الفنية من مزايا لتمهد بذلك الطريق للحكم عليها فنياً<sup>(٤)</sup>. وابن خلدون عندما عرّف الذوق بأنه "حصول ملكة البلاغة للسان"<sup>(٥)</sup> فإن حصولها عنده مرهون بممارسة كلام العرب، وكثرة ورودها على اللسان، وطول سماع الأذن له، والإحاطة بخصائص الأساليب العربية، فإذا ما رسخت هذه الملكة فإنها تفتح الباب أمام المبدعين كي يبدعوا، والنقاد كي ينفقوا. ولا تنشأ هذه الملكة من خلال معرفة قواعد النحو أو القواعد البيانية، فمعرفة مثل هذه القواعد تحيط باللسان علماً بها، أما أن تخلق اللسان الفصيح أو اللسان الذواق فهيئات.

وفكرته هذه سديدة إلى حد بعيد على صعيد الواقع، لأننا كثيراً ما نلاحظ على بعض دارسي علوم البيان عجزهم عن الإبانة عما في نفوسهم، بل يشكّل عليهم أحياناً الفصل ما بين الجيد والرديء إذا ما جاوزوا الأمثلة التي حفظوها أثناء دراستهم<sup>(٦)</sup>. يقول: "وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرره على السمع، والتفطن لخواص تركيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها"<sup>(٧)</sup>.

ويقول أيضاً: "ومن عرف تلك الملكة في شيء، إنما حصل أحكامها كما عُرِفَتْ، وإنما تحل هذه الملكة بالممارسة، والاعتقاد، والتكرار لكلام العرب"<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين المصري (ت ١٣١١/٨٧١١م)، لسان العرب، مادة ذوق.

(٢) ابن سينا، الشيخ الرئيس (ت ٣٠٦/٨٤٢٨م)، اللجأة، ط٢، القاهرة، (د.ت)، ص ١٥٩.

(٣) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١١٩-١٢٠.

(٤) انظر: محمد خلف الله، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ط٢، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١٦٧.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٨٩.

(٦) انظر: أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)، ص ٨٦.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ج ٣، ص ١٢٨٩-١٢٩٠.

(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٩١.

ومما يلاحظ على ابن خلدون أنه لم يتحدث عن الذوق بمعنى الاستعداد الفطري الذي يهيئ المرء لتقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته في بعض الأحيان. وإنما كان يعني الذوق المتكف ثقافة لغوية وأدبية، وقد غالى في التركيز على هذا الجانب إلى درجة أنه جعل هذا الأمر متطلبه الوحيد لمن يتصدر للنقد. وهذا الذوق المتكف مكتسب دون شك وإن ظهر كأنه فطري طبيعي. يقول: "فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعية وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغةً أمر طبيعي، ويقول كانت العرب تتطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع"<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن ابن خلدون تجاوز الحديث عن الاستعداد الخاص، ليقينه أن هذا الاستعداد دون ثقافة لغوية وأدبية لن يجدي نفعاً، أو مثله كمثّل من يبرز بذرة ولا يهيئ الظروف المناسبة للإثمار فلا تنبع<sup>(٢)</sup>.

خاتمة

توصلنا في هذا البحث إلى أن ابن خلدون كان ناقداً نابهاً، ويمتلك الحاسة الفنية اللازمة، التي يقيم من خلالها الظواهر الفنية التي تلوح في الأفق الفني الرحب، وقد تبيين لنا من خلال ما سقاه له من مواقف وآراء في قضايا الأدب والشعر، ما يؤكد امتلاكه لناصية نقد الأدب وسداد رأيه فيه، وأنه كما كان مبدعاً في علم الاجتماع، ومجدداً في علم التاريخ، كان مجدداً أيضاً في كثير من آرائه ونقده الأدبية.

ومن القضايا التي فطن لها ابن خلدون قضية العلاقة بين الدين والشعر، إذ أدرك بفهمه الثاقب لطبيعة الشعر، أن الشعر الذي يقال في باب المعاني الروحية كلها، يدور في فلك المعاني المباشرة، أو المتداولة بين الناس، التي هي بحكم المتداولة، لحضورها في ذهن العامة والخاصة من الناس، لأن مثل هذه الموضوعات لا تحتمل على الأغلب أي قدر من التخيل، الذي هو أس الشعر، وروحه التي من غيرها يتحول الشعر إلى كلام منظوم.

وفي مجال القدرة على الإبداع في المنظوم والمنثور معاً، أو الجمع بين إبداع الشعر ونقده أئموذجاً، تجلّت عبقرية ابن خلدون في تفسير هذه الظاهرة، فقد أدرك أن للطاقة الأدبية في النفس الإنسانية مسالك تسير فيها، أو في بعضها، على حسب طاقة الأديب، وميوله، وفطرته، فقد تأخذ هذه الطاقة صورة الإنتاج في بعضهم، أو شكل الإدراك والتفوق عند غيرهم، وقد تفوق ابن خلدون في تفسير هذه الظاهرة وتحليلها، وتحديد موقفه منها بأسلوب عقلي ومنطوق مقنع، وأبدع في طرح مفهومه لدور الملكات، وحصولها للطبائع في النفس الإنسانية، وأنها صفات وألوان لا تردم دفعة.

أما فيما يتعلق بحصول هذه الملكة بكثرة الحفظ، وجودتها بجودة المحفوظ، وهو ما يمكن التعبير عنه باللغة المعاصرة بدور الذاكرة في تشكيل الإطار الشعري عند الشاعر، فقد ركز ابن خلدون على فكرة الإطار الشعري، حينما ذهب إلى أن ملكة الشعر تنشأ بحفظ الشعر، وقد انتهى إلى آراء قد تكون فريدة، حينما جعل لنوع محفوظ الشاعر دوراً أساسياً في تشكيل الملكة، وأنه بارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام، ترتقي الملكة الحاصلة، ويقرر ابن خلدون أن نوع المحفوظ هو الذي يحدد اتجاه صاحبه، ومستوى شعره، وأن السابق من المحفوظ هو الذي يشكّل الملكة ويلوتها.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١٢٨٩.

(٢) انظر: أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٨٧.

وأخيراً عرض ابن خلدون مفهومة للنّوق الفني، وعرفه بأنّه: "حصول ملكة للبلاغة للسان"، وحصولها عنده مرهون بممارسة كلام العرب، وكثرة وروده على اللسان، وطول سماع الأذن له، والإحاطة بخصائص الأساليب العربية، فإذا ما رسخت هذه الملكة، فبها تفتح الباب أمام المبدعين كي يبدعوا، والنقاد كي ينقدوا، ولم يفته أن يشير إلى أن هذه الملكة لا تستغني بحال عن الاستعداد الخاص عند الناقد، بل إن هذا الاستعداد هو الأصل الذي تنبثق منه هذه الملكة.